

الجمود والتجديد في العقلية العربية

«مكاشفات نقدية»

المؤلف: د. علي أسعد وطفة

السلسلة: آفاق ثقافية - ٥٤

الناشر: الهيئة العامة السورية للكتاب - وزارة الثقافة

مكان النشر: الجمهورية العربية السورية

سنة النشر: (ديسمبر) ٢٠٠٧

إعداد: أ.د. عبدالله المجيد

(*) أستاذ علم الاجتماع التربوي، عميد كلية التربية، جامعة الفرات، الجمهورية العربية السورية.

في عصر يومض بالفكرة، ويمور بالتحديات، يطرح الواقع الفكري والأيديولوجي السائد في مجتمعاتنا العربية، منظومة من الإشكاليات، وتركيبة معقدة من التحديات. وفي عمق هذا الواقع، بابعاده الإشكالية، تأخذ العقلية العربية، بمكوناتها التقليدية وبنيتها الأسطورية، صورة مركبة تقاطع فيها مختلف إشكاليات الواقع العربي وتحدياته. وفي دائرة هذا التقاطع تشكل دراسة العقلية العربية مدخلًا منهجيًّا لفهم الواقع العربي وتحليل مكوناته ورصد مقومات وجوده.

وهنا يكمن جوهر الإشكالية العلمية لهذا العمل العلمي حيث يشكل محاولة منهجية للإجابة عن منظومة من الأسئلة الكبرى المشروعة حضارياً وهي: إلى أي حد استطاعت العقلية العربية المعاصرة أن تتمي في داخلها هذه القدرات الجديدة التي تضمن لها الحضور في عالم ثقافي رهانه الإبداع والابتكار والتجديد؟ وأن تخرج من دهاليز الظلام إلى قداسة التنوير والحداثة؟ وفي النهاية ما السبل الموضوعية التي يمكنها أن تتخذ في سبيل بناء عقلية عربية علمية نقدية متورة قادرة على مواجهة التحديات الكبرى للأمة في عصر العولمة وما بعد الحداثة؟

تلك هي الصورة العامة للعمل الذي يقدمه الدكتور علي وطفة، وتلك هي الأسئلة التي يحاول الكاتب أن يقدم إجابات عنها، وهذه هي المنهجية التي يعتمدها في فهم وتحليل الواقع الثقافي العربي المعاصر عبر كتابه "الجمود والتجديد في العقلية العربية: مكاشفات نقدية".

يمثل كتاب الأستاذ الدكتور علي أسعد وطفة جهدًا علميًّا منظماً ومميراً في الكشف عن ملابسات العقلية العربية التقليدية ودورها في مناهضة قيم الحداثة والنهضة وإغلاق إمكانيات التقدم الحضاري والإنساني في العالم العربي. ويقع الكتاب في ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط، ويتوزع إلى ثمانية فصول مع مقدمة وخاتمة تتناول الأوضاع الأنثروبولوجية للعقلية العربية بوصفها موقفاً كلياً من الكون بما ينطوي عليه من عناصر وقيم وموافق وتحديات وإشكاليات.

يعتمد المؤلف في صوغ كتابه أسلوبًا أدبيًّا جميلاً إن لم يكن ساحراً بمستوياته البنائية والفنية حيث يجد القارئ نفسه مشدوداً إلى سحر الأسلوب

وجمال العبارات وإيقاعات تدفقها في تصوير المعاني يتميز بالرقابة والأنسيابية والجمال. وتلك هي ميزة قلماً نجدها في الأعمال التي تتناول قضايا فكرية بمنهجيات سوسیولوجية وأنثروبولوجية.

استطاع الباحث أن يجمع بين المنهج السوسیولوجي والأنثروبولوجي في تناوله لمسألة العقلية العربية، كما تميزت هذه المنهجية بالدقّة والحرفية والشموليّة. واستطاع الكاتب عبر هذه المنهجية أن يتحرر من عيوب المنهج السردي الوصفي الذي يعتمد عادة في تناول مظاهر الحياة الثقافية؛ حيث يغوص الباحث في أعماق الظاهرة يحللها ويكتشف أغوارها ومن ثم يعمل على تقديمها في سياق كلي شمولي ويرتبط بمختلف مكونات الوجود والحياة الثقافية والفكرية في العالم العربي. وفوق ذلك نجد في منهجية الكتاب ضرورةً منهجية نقديّة متعددة ومتكمّلة تعتمد على التحليل والمطابقة والمقارنة والتقدّم والمؤلفة والمفارقة والفصل والتفسير والتساؤل وإعادة البناء في منظومة من العلاقات السببية والعليّة للتبحر في معطيات الظاهرة والكشف عن معانيها وملابساتها في سياق تاريخي واضح المعالم. ووفقاً لهذا المنهج استطاع الكاتب أن يبني معطيات دراسات وأن يرصد نتائج في منتهى الأهمية وال موضوعية.

إن تحقيق النهضة الحضارية في أي مجتمع مرهون بقيام ثورة في نسق القيم والمفاهيم والتصورات العقلية التي يتبنّاها أفراد مجتمع إزاء الوجود. فالحضارات الإنسانية المعروفة تاريخياً بدأت بنوع من الثورة الإبيستيمولوجية التي غيرت من نظرة الإنسان إلى نفسه ومجتمعه وإلى العالم من حوله «لأن سلطان العقل هو معيار التحضر ومقاييس نهضة الأمم».

ويؤكد الكاتب أنه لا يمكن لأمة من الأمم أن تناهض اليوم عن وجودها وهويتها إلا إذا استطاعت أن تحدث تحولات نوعية في العقلية السائدّة نحو صيغة علمية جديدة قادرة على حمل رسالتها في عالم تحكمه العقول القادرة على الحركة والنفوس الطامحة إلى الإبداع والعمل. فالمضامين العلمية الابتكارية للعقل تشكل في عالمنا المعاصر مبدأ وخبر الرسالة الحضارية، وذلك لأنّ الحضارة المعاصرة تتكون وتتشكل على وقود العلم والمعرفة العلمية.

لقد تبه رواد عصر النهضة العربية منذ البداية إلى أهمية بناء عقلية عربية متغيرة في مختلف مستويات الحياة الاجتماعية، وحاول هؤلاء الرواد تطهير العقلية العربية من أعشاب الخرافة والأساطير، فأعلوا من شأن العقل والعقلانية، وأكروا أهمية العلم والمعرفة العلمية عبر أبحاثهم ونداءاتهم ودعواتهم السياسية والفكرية. ومع مضي أكثر من قرن على هذه الدعوات وظهور أجيال جديدة من المنورين، ما زال العقل العربي يغفو في ظلمات العصور الوسطى، وما زالت مظاهر الجهل والخرافية والأسطورة تسجل حضورها بقوة في الساحة الثقافية العربية في مختلف طبقاتها ومستوياتها.

فتوافر المال والتكنولوجيا والرجال لا يعني بأي حال تحقيق التقدم والنهضة. فالنهضة الحقيقة والتقدم الحقيقي يقوم على معادلة الإنسان المترعرع على رهان العقلية المتحركة من انتقال التخلف الروحي والإنساني، وهذا يعني بالضرورة حالة من التغيير الشاق التي تطهر العقل العربي من أدراجه وتصدده، وتهدم مركباته تخلفه وتداعيه. إنها حالة من التحول العقلي التي تستقر في الإنسان العربي رؤية إبليسيمولوجية جديدة إلى الكون والحياة والوجود، وتؤصل فيه إيماناً كبيراً بإمكانيات الكشف والإبداع والتحدي، وتبني في أعماقه هذا العقل الذي يتحرر من خرافاته وأساطيره ودومات تصدده. فالإنسان العربي اليوم يحتاج إلى موقف جديد متجدد من جوانب الوجود التي تتصل بقيمة العقل والنقد والحرية والانطلاق والمرأة والاقتصاد والأنا والآخر.

إن العقلية التقليدية، بما تتطوّي عليه من قيم واتجاهات ثقافية مثل: الخرافات والأساطير وهيمنة المقدس والكرباء والكرامة والتمرکز حول الذات والتعصب تشكل نسقاً من المعوقات الأساسية لعملية التنمية الاجتماعية. فالقيم والدروافع والقوى النفسية بعامة هي التي تحدد تماماً معدل التنمية الاقتصادية الاجتماعية. ومن هذه الزاوية يمكن النظر إلى أهمية دراسة العقلية السائدة في مجتمع ما وتحديد اتجاه هذه العقلية ومركباتها.

ويعود سبب تخلفنا عن الركب في أكثر جوانبه إلى تخلف الوعي

الجماهيري العام الذي يبقى بعيداً عن أفكار النهضة والحداثة التي بقيت حبيسة فئة محدودة ومنعزلة عن الناس، ولم تتحول هذه الأفكار إلى مكون فعال في البنية الفكرية الاجتماعية، بحيث تمارس دورها في التعبئة الحضارية والنهوض الإنساني وصناعة الرأي العام.

إننا عندما نقدم على رصد مظاهر الحياة السلبية في حياتنا الثقافية، فإن هذا لا يعبر عن رغبة ماسوشية تسعى إلى فهر الذات أو جلدها لأن البداية الحقيقية لكل حداثة تكمن في تفكيرك أساس ومناهج تفكيرنا، والكشف عن العوائق الإبستيمولوجية التي تحجب عنا عيوننا المنهجية والنظرية، ومن ثم دراسة وتحليل مخيالنا المشحون بالمقدس وبتراث من التعاليم والتوجيهات». ومن هذا المنطلق ذاته تأتي هذه المحاولة في فضح الجوانب الأسطورية والخرافية في ثقافتنا العربية وفي أساس منهجية تفكيرنا. ومن منطلق الكشف الإبستيمولوجي عن بنية الثقافة العربية فإننا نريد أن نضع العقلية العربية القائمة في المشرحة العلمية للكشف عن أوجه ضعفها وقوتها وقصورها. ونحن اليوم ولا سيما في دائرة التحولات الأسطورية في أمس الحاجة إلى مراجعات نقدية لثقافتنا وهويتنا وقضايا وجودنا الثقافية والاجتماعية. وفي دائرة هذه المراجعات النقدية تسجل هذه المحاولة نفسها.

يقول المؤلف في هذا الصدد: «إننا لا نريد في هذا الكتاب أن نبحث عن الجوانب المضيئة في ثقافتنا وحياتنا الفكرية. إن ما هو مهم في عملنا هو الكشف عن جوانب العطالة والجمود في حياتنا الثقافية وذلك من أجل بناء تصورات علمية تساعد في تطوير حياتنا لثقافة واجتماعية».

في الفصل الأول يتناول المؤلف مفهوم العقلية ويحلله ويفصل بينه وبين المفاهيم المجاورة له في المكان والدلالة وفي هذا السياق يقول الباحث بصدق تعريف العقلية «إننا إزاء مفهوم إنساني متمرد ومغامر، ويجب الاعتراف منذ البداية، أن مفهوم العقلية Mentalité من هذه المفاهيم التي تزداد غموضاً كلما اشتد المراء في طلبها، وتزداد صورتها تعقيداً كلما ألحّ الباحث على التأمل في

تضاريسها. وهو يشكل واحداً من المفاهيم الإشكالية التي تتدخل بصورة معقدة مع منظومة من المفاهيم المركبة ولا سيما هذه التي تشير الجدل الفكري منذ عهود بعيدة المدى في تاريخ العلوم الإنسانية». يشير مفهوم العقلية إلى تكوينات معقدة واعية وغير واعية، شعورية وغير شعورية، حاكمة للسلوك الإنساني، إنها نظام معقد من المشاعر والأفكار والتصورات والقيم التي تجعلنا نتصرف على نحو ما، وننظر إلى الكون برؤيه خاصة، ونقف من أشياء العالم موقفاً محدداً يفرضه هذا النظام بمؤثراته المختلفة. فالعقلية هي النظام الأكثر غموضاً في تكوين الإنسان والأكثر أهمية وخطورة في حياته، وفي هذا الغامض تحرك أكثر عناصر الوجود الإنساني وتتفاعل لتقدم للإنسان أكثر صيفه الإنسانية تكاملاً. وبعبارة أفضل يمكن القول بأن العقلية تشكل الروح الخفية والغامضة التي تشكل الطاقة الأساسية للحركة والوجود الإنساني. وهي في النهاية نظام من السلوك والنظرة إلى العالم يتشكل ويبلور في الأفران الثقافية للمجتمعات الإنسانية. وبعد هذا الفصل من الفصول الفنية فكريًا حيث تناول فيها المؤلف مختلف القضايا والتوجهات والتعريفات والمحاور التي تتصل بمفهوم العقلية فلسفياً وفكرياً وأنثروبولوجياً.

وفي الفصل الثاني يتناول المؤلف مفهوم العقلية البدائية في تطوره ودلائله ومعانيه الأنثروبولوجية ويقوم بتحليل الإشارات التاريخية الخاصة بالمفهوم البدائي للعقلية عند البدائيين. وبين الكاتب أن عالم البدائيين عالم أسطوري تحكمه قوى فوق-طبيعية (Sur-naturelle). فالرجل البدائي لا يستطيع أن يفكر كفرد خارج دائرة الجماعة التي ينتمي إليها. وهو لا يستطيع أن يرى نفسه خارج دائرة الأشياء التي يملكها، مثل الأشياء الشخصية، كثيابه وأثاره أقدامه، فهي جزء منه وتدخل في بنية هويته. وعلى أساس ذلك يعتمد البدائي عمليات سحرية مؤسسة على هذه العلاقة، وهي عمليات لا تفهم إلا إذا اعتبرنا أن التفكير البدائي مختلف كلّاً عن مبدأ تفكيرنا. وفي هذا المقام يتناول الكتاب مفاهيم الأسطورة والخيال المقدس وغير ذلك من القضايا الأساسية التي تدخل في التكوينات البنوية للعقلية البدائية.

في الفصل الثالث يتناول الكتاب العقلية العربية في مرآة الفكر النقدي المعاصر حيث يستعرض الفصل أهم الأعمال والمقولات الفكرية العربية في ميدان تحليل العقلية العربية السائدة. لقد تناول المفكرون العرب العقلية العربية في ضوء مفاهيم متعددة مثل: العقل العربي، الشخصية العربية، والهوية العربية الإسلامية، والثقافة العربية، والترااث العربي الإسلامي. وقلما استخدم مفهوم العقلية Mentality بصيغته الأنثروبولوجية التي نجدها في الأعمال الفكرية الغربية وهي صيغة تتسم بالوضوح والعمق المعرفي كما بتنا في حدود هذا المفهوم وتاريخه. وهذا يعني بالمقابل أن مفاهيم الهوية والشخصية والثقافة تشكل مفاهيم متمرة وغامضة، وهي وبالتالي أقل قدرة على تحديد الروح الثقافية للشعب أو للأمة أو للأفراد. فأغلب الدراسات والأبحاث العربية الجارية تصنف العقلية العربية بأنها عقلية تقليدية نسجمت على منوال التصورات الخرافية والسلفية والسحرية التي تمانع كل مشاريع النهضة والتغيير والتقدم.

فأسس التفكير العربي تقوم على الحدس والعاطفة والوجdan والتذوق والخيال، وهذه الأسس ترتدي أحياناً ثوباً من لغة العقل، ولكنها في جوهرها معرفة أدبية شعرية أو تفكير شعري ولا يمكن الانطلاق منها نحو تكوين إطار حضاري مستقبلي كما لا يمكن تحليل واقعنا وتصور مستقبله بناء على هذه الأسس المذكورة.

وفي الفصل الرابع يتناول الباحث المضامين الخرافية في العقلية العربية المعاصرة، ويتبين عبر التحليل بأن الخرافة تسجل حضورها الواسع في العقل العربي المعاصر، وأن الرواسب الفكرية والاعتقادية لعصور الظلام تشدّ في الحضور، وأن الإنسان العربي المعاصر يعاني من سيطرة رواسب خرافية وأسطورية لا حدود لها، في مختلف شرائجه الاجتماعية بين العامة والخاصة كما بين النخبة والجماهير. فالأطر الميتولوجية تتحكم في الفكر والسلوك عند الإنسان العربي في كثير من مواقفه اليومية والحياتية ولا سيما في موقفه من المرأة والسلطة والحياة والموت والعدم. وتتغلغل هذه الرواسب الأسطورية

والوشية في أعماق سلوكنا فهناك التعاوين والمندل والقروة والتمائم والأولياء الصالحين والخرافات والأساطير من كل صنف ونوع. فالإنسان العربي «لم يستجب بسرعة كافية لنداء تحديث عقليته والتخلّي عن النظرة الأسطورية، والنظرة الأنوية للعالم. فالأساطير والمزاعم والترهات تسود على حساب العقلية المنطقية، والقوانين الموضوعية، والفلسفة النقادة، والفكر المنهجي».

وفي الفصل الخامس يتناول المؤلف تناقضات الانتماء في العقلية العربية ويبين أن الإنسان العربي المعاصر يعني أزمة هوية وانتماء تتصف بطابع العمق والشمول. وتعود هذه الأزمة إلى وجود الإنسان العربي في ظل كيانات اجتماعية متعددة ومتغيرة، تبدأ بالقبيلة والطائفة حيناً وتنتهي بالدين وبالقومية أحياناً. فالوطن العربي كما تعلن إحدى الدراسات العربية «كيان مركب معقد، تتدخل فيه عناصر الولاءات المحلية بالولايات الوطنية، ولا تتطابق فيه حدود الجغرافيا مع حدود الشارع، ولا حدود السياسة مع حدود الأمة». وبالتالي فإن تعددية الانتماء وتناقضاته تؤدي إلى حالة من الانشطار في الهوية الاجتماعية، وإلى حالة من التمزق الوجداني الداخلي عند الإنسان العربي، الذي تتخطفه، وفي الآن الواحد، مشاعر انتماء اجتماعية متعارضة ومتناهية في مختلف المستويات والاتجاهات.

إن تسامي مشاعر الانتماء العاطفي والقبلي أدى إلى ولادة موجة عارمة من مشاعر الولاء والتعصب بمستوياته المختلفة، فأغلب المجتمعات العربية تعيش تحت تأثير موجة من القيم التعصبية والتمييز الطائفي والإقليمي والعشائري والعرقي، الذي ينخر عظام الوجود الثاقف في الحياة العربية المعاصرة. وفي غمرة هذا النمو الكبير لهذه الولاءات الضيقة بدأ الإنسان العربي المعاصر يتعرض لكل أشكال الاضطهاد والتمييز والسلط، ويعاني مختلف ألوان التعصب والقهر، حيث بدأت قيم التسامح تسجل غياباً كاملاً وتترك مكانها لقيم التعصب الطائفي حيناً والعشائري أحياناً.

فالأنظمة السياسية تعيد بشكل ضمني إنتاج العلاقات والانتماءات

التقليدية الطائفية والعشائرية وتوكدها بصورة مستمرة عبر ممارسات تتصل بتوزيع الأدوار والوظائف الأساسية في الدولة على أساس عشائري أحياناً، وطائفي أحياناً، وإقليمي في كثير من الأحيان. لقد عملت بعض الأنظمة السياسية الشمولية في الوطن العربي على ترويج مقوله التوازن الطائفي، ووظفت مفهوم الرعب الطائفي كأداة أيديولوجية ضاربة في إرهاب الجماهير، وأصبح هذا المفهوم يدخل اليوم في بنية هذه الأنظمة ويساندها، حيث يشكل الحاكم بيضة القبان في التوازنات الطائفية القائمة في بعض البلدان العربية المعاصرة. فالضغط الطائفي غالباً ما يشكل إكراهاً عاصفاً يجتث مختلف محاولات التنمية الديمقراطية وعاصفة من نار تدمر كل المحاولات الإنسانية وتحرق أحلام الناس في وطن ديمقراطي حر أصيل.

وفي الفصل السادس يتناول الكاتب إشكالية الزمن في العقلية العربية، فالزمن كما يراه الباحث يشكل معياراً لتصنيف العقليات، وعلى أساس الموقف من الزمن تصنف أيضاً العقليات إلى عقليات تقليدية جامدة متحجرة تعيش في الماضي ولأجله، وتدور في ذلك الأسلاف والأجداد والتقاليد القديمة. وهنا نجد بأن محتوى ومضمون هذه العقليات عقائدياً وقيميًا ينتمي إلى مرحلة سابقة من التطور الاجتماعي والفكري كإيمان بالسحر والشعوذة والتقليد وأرواح الآباء والأجداد وقيم الزمن الماضي بغضها وثمينها، ومن ثم الإعلان عن موقف الحذر والريبة من كل جديد وابتكار مهمما يكن مضمونه. إن كثيراً من مشكلاتنا الحضارية والثقافية تعود إلى الماضي وما حملنا به هذا الماضي من مفاهيم وتصورات تصدنا عن متابعة الحركة باتجاه النهضة والحداثة والمستقبل.

وفي الفصل السابع يتناول الكاتب مفارقات المقدس في العقلية العربية، ويرى أن إشكالية المقدس من أخطر الإشكاليات، وأكثرها حساسية في حياتنا الثقافية المعاصرة. وتأتي هذه الصعوبة من حساسية المقدس نفسه الذي يلامس في كثير من الأحيان النوايا الدفينة للوجودان الإنساني بما يشتمل عليه هذا الوجودان من عقائد إيمانية وروحية راسخة في أعماق أعمق الإنسان.

وتحت تأثير هيمنة المقدس في ثقافتنا العربية تبدأ رحلة العطالة والجمود الحضاري عند الإنسان العربي. ففي هذا الكون الذي يسحقنا بأصنامه وقدسياته يسمى فيه كل شيء وينحدر فيه الإنسان. لأنه في العالم الذي تطفى فيه القدسيات على نحو شمولي يتتحول الإنسان فحسب إلى حالة دينية مبتذلة مقهورة يفقد فيها كل مقومات وشروط الوجود والكونية والإبداع. إنها حالة الإنسان الذي يتحرك في حقول الألغام القدسية حيث تتحول فيها كل الكائنات والرموز والأشياء إلى مقدسات: الأب والأم، والوطن، والمعلم، والعادات والتقاليد والأعراف، والحكام، والطقوس والقوى الخفية، والسحر والشعوذة والتمائم، والأحلام، وأرواح الآباء والأجداد، والتاريخ والتراث، وطقوس الموت والحياة والولادة والعدم، والأنبياء الجدد وزعماء الأحزاب، وقادة الانتصارات والمفكرين والشيوخ ورجال الدين.

ففي الدين الإسلامي يتعدد المقدس في الله جل جلاله وفي شخص النبي عليه الصلاة والسلام، وفي كتاب الله الكريم ثم في سنة نبيه الكريم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وهذا ما يكاد يجمع عليه المفكرون والفقهاء والعلماء. وتلك هي الأقانيم الأساسية لمسألة التقديس الإسلامي. ووفقاً لهذه المعادلة القدسية يجب على المؤمنين الإيمان المطلق بالله وكتابه وسنة نبيه إيماناً لا يقبل المناقشة أو التداول أو أي مظاهر من مظاهر الشك والجدل؛ وذلك هو عين التقديس والقداسة. فالناس يجب عليهم أن يخافوا الله وأن يعبدوه ويحبوه ويطمعوا في حلمه وفضله ورحمته. ويترتب على هذا أن الله مصدر الخير والحق والجمال والقوة والخير، وأنه وهب نبيه الأكرم النبي محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) التكريم والعصمة والوحى والطهارة والقدسية، وهذا يعني أن شخص النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وسيرته وتعاليمه تتألق في أعلى مرتبة من مراتب القدسية في الإسلام.

وباستثناء الله وشخص النبي وسيرته فكل الأشياء والمظاهر الإسلامية الأخرى قابلة للمناقشة والتداول والجدل. فحياة الصحابة وأفكارهم وأخبارهم، واجتهادات الفقهاء والمؤمنين، والتراث الإسلامي وما جاء به الأولون والآخرون،

وسيرة الحكم والخلفاء، جميعها قضايا دينية يحضر الإسلام على أن تكون موضوعاً للتفكير والمناقشة والتحليل والتفكير في سبيل فهمها وإدراكتها وتجدیدها والإضافة عليها وقبولها ورفضها ضمن غائية إسلامية إيمانية نابعة من الإيمان بالإسلام وعقيدته ومقاصده الروحية السامية.

ويقظة مواجهة هذا المدى الأسطوري المقدس مبتدع لا عقلاني، يوظف في خدمة القمع والإرهاب، فإن الثقافة العربية مطالبة اليوم بالعمل المتواصل من أجل بناء طاقة علمية ومنهجية جديدة تستطيع أن تسجل حضورها في عالم اليوم وفي مواجهة المقدس الأسطوري والكشف عن جوانبه التي تتنافر مع العقل وتعارض مع الدين. إن الثقافة العربية المعاصرة مطالبة اليوم بالعمل المستمر على إحياء النزعة العقلية وإزالة الطابع القدسي المزيف للموجودات. إنها مطالبة بأمرتين أساسين هما: تحديد علمي وموضوعي للحدود الفاصلة بين المقدس الإسلامي وبين الدنيوي، وهذا عبر رؤية عقلانية يقرّها الدين ويباركها العقل من جهة. ثم يتوجب على هذه الثقافة أن تهتك حجب وأسرار المقدس اللاعقلاني الأسطوري وأن تعيد للعقل والإنسان مكانته ودوره في تفسير الكون والحياة والوجود على نحو علمي من جهة ثانية.

في الفصل الثاني يتناول الكاتب مسألة الحرية والاحتمالية في العقلية العربية، ويرى بأن قضية الإرادة والحرية أكثر قضايا الوجود امتحاناً للتفكير الإنساني. وفي هذا السياق يفصل الكاتب بين مفهوم القدرة ومفهوم القدر. فالقدرة هي إحالة كلية لمصير الإنسان على قوى غير إنسانية، وهي تفسير لأحداث الكون والحياة الإنسانية على أساس تدخل قوة إلهية كونية عليا تصنع المصير دون تدخل الإنسان والبشر. فالمعتقدات القدريّة تضرب بطابعها الاستلابي حضورها المكثف في العقلية العربية، وينسج التواكل معالم الثقافة الشعبية في المجتمعات العربية المعاصرة. فالتواكليّة من أخطر الرواسب التاريخية التي سطرتها تجربة القيمة الإنسانية الذي عانت منها هذه الأمة ووضعت الإنسان في دائرة الهزيمة والاستسلام. إن حضور القدرة في نمط

السلوك والتفكير يعني هزيمة إنسانية وحضارية شاملة. ولا بد لنا من القول في هذا الصدد بأن القدرة تشكل أساس التخلف الحضاري الذي تعانيه الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة.

وفي خاتمة الكتاب تحت عنوان معادلة التغوير في العقلية العربية: نحو عقلية عربية متعددة في عالم أنقله التغير، يحاول الكاتب أن يستخلص المعطيات الفكرية للعمل في سياق شمولي حيث يعلن بأن العقلية العربية تقipض بمعطيات وتصورات تقليدية وبدائية تضعنا في الدرك الأسفل من سلم الحضارة الإنسانية، وأن العقلية العربية ما زالت محكومة وإلى حد كبير بمضامين أسطورية وخرافية وتقليدية في مختلف مقومات نظرتها إلى الكون والعالم. وقد تبين لنا أيضًا أن هذه المضامين الأسطورية تحديد موقفنا من العالم والمرأة والآخر والطبيعة والمقدس والإنسان. فالعقلية التي تحكمنا عقلية قدرية إنكالية تدفعنا إلى دائرة العجز والقصور والسلبية بمختلف الوجوه والمضامين. فهناك غياب وتغييب للمضامين القائلة التي تحكم نظرتنا إلى العالم، حيث تخضع خصوصاً صاغراً إلى منظومات من الرؤى اللاعقلانية والبدائية إلى الحياة والوجود. وهذا يعني أن بنية العقلية التي تحركنا بمضامينها المختلفة تتسم بطابع قدرى استسلامي.

لقد عملت الثقافة التقليدية السائدة منذ عهد بعيد على غرس الخضوع للأمر الواقع، وهي ما زالت تعمل على تجريد الفرد من روح المبادرة، وتدمير مشاعر الإحساس بالمسؤولية، وإضاف الطابع القدسي على أغلب جوانب الحياة، وتغيب الروح النقدية في مختلف جوانب الحياة والوجود. إنها تمارس فعلها في تعطيل العقل والروح النقدية والمبادرة والإحساس بالمسؤولية والوجود. فالإنسان العربي في مجتمعاتنا يعيش حالة عطالة ذهنية بفعل ثقافة تقليدية تعمل على تدمير مختلف الجوانب الإنسانية في نظرة الإنسان إلى الوجود.

وفي مواجهة هذه العطالة الثقافية، وفي إطار مشروع للتغيير يتوجب

إحداث خلل في بنية الذهنية التقليدية، وتفكيك مقومات تكاملها عن طريق النقد العملي، وتبيان أوجه التناقض التي تمثل في عدم قدرة هذه العقلية بخاضنها التأثير على مسايرة جوانب الحياة.

وتأسيساً على تقدم من قول يمكن القول بأن المجتمعات العربية مكرهة اليوم على بناء معادلة التثوير والعقلانية وبناء العقلية النقدية المترورة، لأن حاجات الوجود أصبحت اليوم حاجات معرفية وبالتالي فإن هذه الحاجات تتضمن مع تضاعف هذه الثورات المعرفية المتقدمة. والأسئلة التي تستقطب كل الأهمية هنا: كيف يمكن للإنسان العربي أن يواجه هذه التموجات الحضارية بعقلية تقليدية صرفة؟ لا يتوجب عليه أن يحدث ثورة في بنية تصوراته ونظرته إلى الكون والحياة والوجود؟ ألم تزف الساعة بعد لكي يفجر الأطر الميتولوجية والأسطورية والخرافية في داخل عقليته وبنية تصوراته؟ وباختصار ألم يحن الوقت من أجل بناء روح جديدة تؤمن بالعقل والعقلانية والقدرة على صناعة المصير؟ هذه الأسئلة تشكل ما يسمى بمعادلة التثوير التي يجب على المجتمعات العربية أن تضعها في سلم أولويات الحركة نحو التقدم والحضارة.

إن إحداث تغييرات جوهرية في العقلية السائدة لا يمكن أن يتم من خلال الخطابات الجيدة والتوصيات الصادقة. إن إحداث التغيير في الذهنية مرهون في البداية بفهم عميق للرهانات الثقافية والاجتماعية القائمة، ومن ثم اعتماد استراتيجية دقيقة ومحددة للتغيير المنشود.

إن معادلة التغيير الأساسية في مواجهة التحديات العلمية المعاصرة تكمن في بناء الروح النقدية عند الفرد وفي دائرة المجتمع على مستوى الجماعات التي يحتضن وجودها. والروح النقدية هذه طريقة في النظر والتفكير تسمح لكل فرد في المجتمع أن ينتزع ذاته من لجنة التقاليد الحاكمة، من التصورات التي غرستها الثقافة في أعماقه على غفلة منه، من المعتقدات التي تحاصره وتعطل لديه إمكانيات التفكير الحر، وأن يعيد النظر في جماع ما هو عليه من تكوينات ثقافية تشكلت فيه رغمًا عنه وتفاعل في فيها الأسطورة والخرافة والعلم والوهם.

في هذه المعادلة التوويرية يمكن للفرد أن يتحرر من التعصب للأفكار المسبقة والتقاليد اللاعقلانية وأن يبدأ بانتزاع نفسه وذاته من ذاته ليتمكن من النظر إلى الكون كما هو دون إضافات خارجية. في معادلة التویر هذه يجب أن يتمكن الفرد من القدرة على إجراء المحاكمات العقلية في ضوء العلم والمعرفة العلمية والعقلانية للوجود. وفي اتجاه بناء هذه العقلية يجب على المجتمع أن يبدأ بالتربيـة وما يلف لفـها لأن التربية العقلانية والنقدية يمكنـها أن تكون كـحسـان طـروـادة في اقتـلاـع الأعـشـاب الضـارة من العـقـل وبنـاء العـقـلـية على نـحو عـقـلـاني وموـضـوعـي.

ومن هنا يجب العمل منهـجـيـاً وتربيـوـيـاً واجـتمـاعـيـاً على تصـفيـة مـخـتـلـف العـنـاصـر التي تـوـجـد فيـ أـصـلـ العـقـلـيةـ الخـراـفـيـةـ والأـسـطـوـرـيـةـ. إذ كـيفـ يـمـكـنـ الانـخـراـطـ فيـ حـرـكـةـ التـارـيـخـ وـنـحـنـ مـحـاـصـرـوـنـ بـعـقـلـيـةـ أوـهـنـهاـ هـذـاـ التـدـفـقـ الـكـبـيرـ للـخـراـفـاتـ وـالـأـوهـامـ وـالـأـسـاطـيـرـ؟ـ وكـيفـ يـمـكـنـ المـشـارـكـةـ فيـ صـنـعـ الـحـضـارـةـ الـإـنـسـانـيـةـ بـعـقـلـيـةـ ظـلـامـيـةـ أوـهـنـهاـ الـلـامـعـقـولـ فيـ طـرـقـ التـفـكـيرـ وـالـبـحـثـ وـالـنـظـرـ؟ـ